

## السرقعة

فراقي الا لاشهر معمودة ، ثم يطل ضاحكا ملء شديقه ، كأنه يلاعبني . كل ما في داخلي وما في خارجي يؤكد لي وللآخرين بانني لم أعد ذلك الطفل الصغير المتربع سعيدا على ركبتي جده ، لهذا أبحث باستمرار عن علاج لما آتا فيه ، أغرق نفسي بالعمل فيحالفني بعض النجاح ، ولكن الى حين . لجأت الى المرأة ، اعتقادا مني بان لكل شيء آفة من جنسه ، فتزوجت ، لكن زوجتي ، سامحها الله ، لم تطق العيش برفقتي طويلا ، رغم انها كانت هي القوامه علي ، فطلقتني وردت لي المهر مضاعفا .

يزعم الطبيب أن الرمل يتجمع في الكلية اما من الماء الملوث ، أو من الفواكه والخضار غير المنظفة جيدا ، الا أن المرحوم أبي لم يكن ليؤخذ بهذه المزاعم ، بل كان يردد نقلا عن لسان الشيخ ، وكلما نزل المرض بفرد من أفراد الأسرة : لا طيب سوى الله ، ويستطرد أبي اجتهدا منه ، فيرى جميع الأطباء منافقين ، فما من طبيب استطاع أن يمسك بروح مخلوق أن موعد رحيلها ، حتى ولو كان هذا المخلوق فارة أو نملة أو شجرة أو ما شابه ، بينما قبرة الله ، سبحانه ، معروفة لا تحتاج الى برهان . ولكني بدافع الحداثة في تفكيري ، كنت احيانا أغامر وأتجر من تأثير أبي فارغم نفسي على التقيد بنصائح الاطباء بشأن كليتي السقيمتين ، فأتناول بعض الادوية بانتظام وأحاذر كثيرا عند تناول الخضار والفواكه ، ولا أشرب من مياه الشفة الا المعبأ منها في قوارير معقمة ، ولدى تحليل البول يجد الطبيب أن الرمل فسي تزايد مستمر ، وأنه يتحول الى حصى صغيرة ، بعضها يهبط مع البول من المجرى المتداد فتكاد تحملني رعشة الالم الى حافة قبوري ، وبعضها الاخر يتشبت بجدران الكلية فيحرمني طعم الراحة او النوم ، فأعود مسرعا الى الايمان بما كان يردده أبي نقلا عن لسان الشيخ، وأجد أن أبي كان ، كالشيخ ، دائما على حق ، وأن جدي كانت ، هي أيضا ، دائما على حق عندما كانت تعالج الرمد في عيوننا بقطرات من بولها المقدس .

وكنت من فرط تعلقي بجدي ، أصر ، حتى البكاء على النوم في غرفتها وفي فراشها بالذات ، وعندما بدأت بتعلم القراءة والكتابة ، كنت أقرأ لها ما حفظت فتفرح بي فرحا عظيما وتهال علي بقبلاها وقروشها ، وما كانت جدي ، تحسن حظها ، بقارئة ولا كاتبة ، لكنها كانت أكثر فهما وأكثر ذكاء من أبي ، وقد كان ، لسوء حظه ، يفك الحرف ويكتب توقيعه بخط يده ، ويحفظ كل ما قاله الامام علي في المرأة ، ويرى نفسه ، نتيجة ذلك من علماء زمانه الاعلام . وكان كثير الصيق بجدي ، يسفه أقوالها ، ويتهمها بأنها ستفسدني بمعاملتها لي ،

رحم الله جدي .  
يقول الشيخ بعد ان ينتحج عميقا :  
- اطلبوا الرحمة لوتاكم كلما اتيتم على ذكركم ..  
ثم يستدرك على عجل :  
- .. وطلب الرحمة للاحياء غير مكروه .

وجدني مات منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة ، ماتت مفهورة مكسورة خاطر ، كان عمري ، يومذاك ، اثنتي عشرة او ثلاث عشرة سنة ، لا يمكنني التحديد بدقة . ورغم هذه الفترة الطويلة فان صورتها الطيبة تعمر مخيلتي بحيث لا نفسح بالمجال لاية ذكرى من ذكريات الطفولة بالبقاء طويلا . ولست واجدا لهذه الحالة تفسيرا ، جميع الاطفال يتعلقون عادة بجدااتهم ، نفورا من الاء والامهات ، لكن مشكلتي بلفت حدا مخيفا من التعقيد . الاشارة الى عقدة « أوديب » ، التي تضحك البعض ، تبكي . وكل ما في الامر اني كنت ، في طفولتي الاولى ، شديد التعلق بجدي ، لا افارقها لا في ليل ولا في نهار ، الانسان بحاجة قاهرة لان يتعلق بشيء ما ، او بكان ما في كل مرحلة من مراحل عمره ، لكن الشيخ يحذر الناس دائما ، وبشيء من الحدة ، من التعلق بالدنيا . وحي لجدي يعود ، فيما يعود اليه ، الى انها كانت تدلني كثيرا ، غير عابئة بتذمر أبي . تجلسني برفق على ركبتيها ، وتلاعبني وتقص علي أحسن القصص ، وعندما بسدت انعرف على معنى القروش وقيمتها ، بدأت ، رحمها الله ، تمدني ببعضها من الكيس المنتفخ المعلق دائما برفقتها ، والذي كان يسيل لعاب أبي كلما رآه . لذلك كنت اتعمد عندما تحضنني ، ان اتحرك على صدرها على نحو اسمع معه رنين القروش المعدنية داخل الكيس فاطرب طربا شديدا .

كان ذلك يوم كنت طفلا صغيرا ، ولكنني تجاوزت الان من عمري نصفه أو ثلثيه ، لذلك بات هذا الشعور بالطمأنينة والانتواء الذي يتناوبني ، كلما تذكرت المرحومة جدي ، يجريني كثيرا ، فأقف أمام المرأة وأنظر الى وجهي بامعان ، لا بدافع النرجسية ، ليس لدي ما يحملني على عشق ذاتي ولا على عشق غيري ، شعرات لحيتي صلبة كالابر ، بينما جلدة وجهي طرية جدا ، ما من رجل ابتلي بأمر لحيته مثلي ، والشيب الفضي يكسو جانبي رأسي ، وعيناي الصغيرتان ضعيفتا النظر ، كعيني شيخ حفظ جميع كتب الفقه والحديث والتفسير ، متونا وهوامش ، عن ظهر قلبه ، وكليتنا يتراكم فيهما الرمل والحصى بكثرة ، وامعاني الغلاظ تنزف دما وقيحا . والفتق الفاغر في أسفلي لا يطبق

المنظاهرة بالاهتمام وقالت لها بلهجة واثقة :

- أشعر بأن ساعتني قد دنت .. وربما كانت هذه وصيني الاخيرة ، بعد غسلي جيدا ترشين محتوي علبة الكافور على جسدي كله ثم تضعين عقد العقيق في عنقي ، العقيق يضيء في القبر ، وبعد ذلك تدرجينني في اكفاني الثلاثة تباعا ، استحلفتك الله بتنفيذ رغبتني كاملة ، ولا تسمحني لاحد بالتدخل في هذا الامر او حتى بابداء الرأي

ورأيت الزائرة تهز رأسها الشبيه برأس البومة وهي تقسم بأنها ستنفذ رغبة جدتي بخدافيرها ، وسيكون المكان الشاهدان ، شاهدين عليها ..

ولم أحتمل البقاء في الغرفة بعدما سمعت هذا الحديث المخيف ، فهربت مسرعا وقد اغرورقت عينايا بالدمع .

ومنذ تلك الحادثة ، وأنا أصاب بالشroud كلما تذكرت جدتي فانطوي على ذاتي وأذهب في رحلة الى القبر فأرى جدتي وهي في زينة الموت ، مسجدة في حفرتها الضيقة ، وحبات العقيق الاحمر تضيء ضياء ساطعا يبدد عنها الخوف ويجعل حسابها ، على يدي منكر وكبير ، يسيرا لا فسوة فيه .

واشند المرض على جدتي فلم يعد باستطاعتها مفادرة الفراش ، وبات الجميع يترقبون ساعة موتها ، وكنت كلما وقفت الى جانبها أراها تشير الى الخزانة فاذهب مسرعا وأحمل البقجة بين يدي فيبين الاطمئنان على وجهها وينعكس على وجهي .

وفي احدى الليالي أفقت منعمورا على صراخ امي واخوتي ، كان صراخ امي حادا كأنه ينادي جميع من في البلدة بأن يحضروا ، فركضت ، وأنا نصف نائم ، نحو غرفة جدتي محاولا استباق الموت اليها ، فوجدتها ما تزال على حالتها وكانت تبكي بصمت . وفوجئت بأن المسكين أبي هو الذي مات ، مات بذبحة قلبية صرخته في دقائق معدودة ، وعندما جاء الطبيب كان كل شيء قد انتهى ، وبما أن أبي لم يتدر أحدا بموته فلم يكن قد جرى الاستعداد لتجهيزه من قبل ، وكان ، رحمه الله ، على العكس من جدتي ، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، لذلك سمحت امي لنفسها بأن تستعير نه كفنا من اكفان جدتي الثلاثة ، دون علمها وطلبت الي أنا بالذات أن أقوم بهذا الامر ، فافسدت ، سامحها الله ، حياتي برمتها .

وبعد دفن أبي ، مكثت قرب جدتي وأنا أبكي بمرارة ، والمسكينه تحاول التخفيف عني بلمسات يديها المعروفتين ، وما كانت تدري أن اكثر بكائي كان بسبب ما حدث للبقجة ، ليت امي لم تشركني فسي جريمته المنكرة ، وكنت أتمنى لو ان امي تشتري بدل الكفن المستعار قبل أن تنتبه جدتي الى الامر ، وكنت كلما لجات الى تذكيرها أسمع منها جوابا زاجرا فيزداد همي ويهبط شرودي . وكانت امي مشغولة بمصائبها وخراب بيتها كما كانت تردد دائما ، ولم استطع معرفة سبب هذا الاهتمام الكبير منها بأبي ، بعد وفاته . ولم تقطع النساء عن الحضور بكثرة الى بيتنا طوال أشهر عدة بعد وفاة أبي ، ونسيت امي الكفن المستعار ، وانهمكت أنا في دروسي وامتحاناي ، واستمرت جدتي تراوح مكانها لا تتحسن ولا تسوء .

وذات مساء وصلت الى البيت فوجدته هادئا على غير عادته ، أسرعرت الى غرفة جدتي فوجدت امي والزائرة الغربية وبعض الجارات ، ورأيت علامات الآسى على وجه الجميع . اقتربت من جدتي فراعني منظر وجهها بهزاله واصفراره المخيفين ، أمسكت يدها وأنا غير مصدق

ولكنه لم يكن يجرو على لومها أمام امي ، وكنت أتجنب نعل ما يقوله الى امي ، لاني لم اكن أحب طريقتهما بالخصام وهي طريقة لا اعتقد أن لها شبيها بين أي زوجين في البلدة . ولست قادرا ، وقد كنت أن أبلغ من العمر عتيا ، أن أصدر حكما بحق احدهما ، اذا أخذت بكلام الشيخ القاتل بأن الرجال قوامون على النساء لحكمت لصالح امي ، لان امي ، في سلوكها معه ، كانت تخالف النص مخالفة صريحة ، واذا أخذت برأي اللعنة الى مساواة المرأة بالرجل لحكمت لصالح امي ، لان أبي كان يرى المرأة كالبهيمة ناقصة العقل ، ناقصة الدين ، ناقصة الحقوق .

وذات مساء ، وبعد عودتي من المدرسة ، وجدت في غرفة جدتي امرأة غريبة متشحة بالسواد ، فلم أهتم بها فعانقت جدتي وانصرفت قابضا بيدي على القرش ، وعندما أخذت زيارة تلك المرأة تتكرر ، على فترات متباعدة ، بدأ الامر يشير فضولي ، فحاولت أن استوضح من امي سر الزائرة الغريبة ، وسبب اهتمام جدتي بها ، لكن امي زجرني بحدة فسكت . غير اني انتظرت بقلق احدى هذه الزيارات ، فأخشيت وراء احدى النوافذ أسترق من ثقب فيها السمع والنظر ، فرأيت جدتي تقوم ، بعد أن أجلست الزائرة على فراحة قريبها ، الى خزانتها الخشبية فتأخذ منها بقجة كبيرة وضعتها بين يدي الزائرة ثم حلت عقدها الكبيرة ، وبعد ان استعرضت الزائرة محتويات البقجة ، أعادتها جدتي الى مكانها من الخزانة .

وصعب علي كثيرا ان يكون هناك ما يشغل جدتي عني فحقدت على تلك المرأة الغريبة ، وكنت أحقد على البقجة لولا أنها كانت من خصوصيات جدتي ، وكنت أحاول أن أضع الزائرة ذات الوجه الاجعد والعينين اللطافتين مكان احدى بطلات الحكايات التي تحكيها لي جدتي ، فلم أجد لها دورا مما قرن حقدني عليها بالخوف منها .

وموت ستنان أو ثلاث .

من مزاعم اطباء ايضا أن التدخين يورث ضعف اذاكرة ، خاصة بعد سن الأربعين ، لذلك الجأ الى الاثثار من التدخين ، وبكل انواعه ، سعيا وراء النسيان ، فيحدث العكس وتزداد الصور الموحجة وضوحا في ذهني .

عندما طلبت مني زوجتي أن استشير طبيبا ، ضحكت من كلامها ثم حاولت افهامها بأن الزواج قد يقوم على غير الجنس ، وفيما أنا مسترسل في الشرح والتوضيح رأيتها تبكي بمرارة وتشد شعرها بيديها ثم انهالت علي بشتائم من نوع معين . وفي اليوم التالي طلقنتي ثلاثا لانها لا تستطيع البقاء عنراء كل حياتها كما ادعت أمام القاضي .

بعد سنتين أو ثلاث أصاب المرض جدتي وأقعدها في الفراش ، لا تفاديه الا في الحالات الضرورية ، فكانت امي تأتي لها بالطبيب وتشتري لها الادوية غير مبالية باعتراضات امي الذي كان بأسف على هدر المال بدون فائدة ترجى فيصبح مقلدا لهجة الشيخ :

- اذا حم اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون ..

ولا أدري لماذا كنت أطرب لدى سماعي كلمة « يستأخرون » عندما يلفظها أبي مفخمة . ولكن جدتي لم تكن تفرم أحدا بدفع فرش واحد ، ففي الكيس المعلق برفقتها معين لا ينضب أبدا . وكنت دائم المكوث قريبا ، أسرع في تلبية طلباتها وأحدثها وأستمع اليها ، وحضرت الزائرة الغربية مرة وأنا في غرفة جدتي ، فرحبت جدتي بها واجلستها قريبا دون أن تطلب مني الانصراف وانما طلبت مني أن آتيها بالبقجة من الخزانة بنفسي وأن أحل عقدها الكبيرة ، ثم أدارت وجهها نحو الزائرة

## قراوات فلسفية

### في عرس التحدّي

الفضيب المسكون بأعماق الأرض  
وفي قلب الطفل  
خطى تزرعها نجمة  
وقرانا ، مدن المستقبل تطلع  
بسمه «

\*\*\*

يا رحم التكوين اراك  
... اراك  
فيك يخب دمي ...  
بقرا أغنية الميلاد ويسم  
« بالنار وتاريخ الفضيب الاحمر  
يزهر ورد الفقراء  
يصير البحر مدى النهر  
يصير النهر قراءات  
ونوارس موج يتحدى ...  
يتحدى وجه التعب التازف  
عها  
وسيوف الردة  
وبلادي زهرة حنون تطلع من  
عرس

يتحدى

يتحدى

يتحدى .

يادي تغني  
وعصاير البحر  
دمي نهر  
وسماوات طفولة

\*\*\*

يا رحم التكوين  
... اراك  
اراك بذورا  
جذرا  
بذرا  
وقمر

يا رحم التكوين رؤاي رؤاك  
« في اوجهم تعب يكتبه العهر  
بنفط الصحراء

يدجنهم ...

فيصرون رماد الاشياء «

\*\*\*

يا رحم التكوين رؤاي رؤاك  
« وطريق تكتبه النار بتاريخ

صوت شجري الابعاد يحاورني  
من اعماق الأرض يجيء  
وفعل البدء يكون  
واراك ...

اراك تضيئين

دمي نهر

نجمة

... اراك

اراك تجيئين

تهتزين

وبلادي نهد يتماسك في الليل  
ولا ينسكب الان على الرمل  
حليب الفعل  
وحيفا يسكنها القلب  
يضج بنار الخطوات

وحيفا ام لا تفض عينها  
لا تتفاضى ...

يا نهد بلادي المسكون

برغبة عشق الأرض

وصوت الطفل

أخذته المرأة وانصرفت مسرعة ، ورأيت عيني جدتي المغلقتين تمتهران  
بعض الدمعات الصفار ، فحاولت ببلاهة ، كمادتي في جميع محاولاتني  
الجادة ، أن أخفف عنها بعض ما تعانیه وسمعتها تهس :

— من سرق كفتي يا ولدي ؟ من سرق كفتي ؟

وكنت أصرخ ، وشمرت بالازدراء والكراهية نحو أمي ونحو نفسي  
ونحو الناس جميعا ، كيف أقبل أن تموت جدتي وهي على هذه الحالة  
من الاسى والتهر ؟ لماذا لا أخبرها الحقيقة ؟ لماذا لا أجرؤ على طرد  
جميع من في الغرفة الى الخارج ؟

وانحنيت على يد جدتي أقبلا مستغفرا باكيا ورحمت وأنا منحني على  
يدها ، في غيبوبة لم أسمع خلالها نداءات أمي والنساء الحاضرات ،  
ثم رفعت رأسي بعدما أحسست بحركة مخيفة داخل صدر جدتي ، ثم  
سمعتها تشهق شهقة عميقة أنهت عندها ، بينما بقي السؤال معلقا على  
شفتيها الزرقاوين ودفن معها دون أن تحظى بجواب .

صيدا - لبنان

ان هذه الكتلة البشرية الشوهاء هي بقية جدتي ، ورأيتها تفتح عينيها  
بصعوبة ، وادركت من حركة عينيها أنها تريد البقجة ، فتجاهلت رغبتها  
والالم يعترض صدري ورأسي اعتصارا ، وسمعت حشرجة صوتها يقول  
لي وكأنه أت من أعماق بشر بعيدة القعر :

— أعطني البقجة ..

ولم استطع رفض طلبها ، فوضعت البقجة على صدرها وحللت  
عقدتها بيد مرتجفة والدموع تتلاحق على خدي ، فمدت يدها وتناولت  
بمشقة كبيرة علبه الكافور ثم عند العقيق ، ثم الكفن الاول فالثاني ...  
ورأيت عينيها يتحلقان على نحو لا يمكنني نسيانه أبدا ، وسمعتها تصرخ  
كانها تتحدى الموت :

— أين الكفن الثالث ؟

ثم سكنت لا حركة ولا صوت ، ورأيت أمي ترتبك ارتباكا شديدا ، وهي  
تحاول تطمينها والتخفيف عنها ، ثم نادى أمي المرأة الغريبة الى خارج  
الغرفة على عجل فأسرت في أذنها بعض الكلمات ونقدتها مبلغا من المال